٢

المسؤولية في :

نهج البلاغة

حسن موسى الصفار

قال الامام على عليه‌السلام فى نهج البلاغة :—

" اتقوا الله فى عباده و بلاده ، فانكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم .

واقع الامة المأساوي :

تعيش امتنا الاسلامية فى هذا العصر وضعا مأساويا مترديا جدا :

فالاسلام الذى هو مبعث نهضة الامة و مصدر حيويتها و كرامتها قد طرد من مسرح الحياة و سجن فى زوايا الكتب و صدور العلماء ، و حوصر فى حدود التقاليد والعادات والطقوس .

والاستعمار لايزال يحتل اجزاء عزيزة من ربوع الوطن الاسلامى كفلسطين و اريتريا و تركستان والفلبين . . .

والنعرات القومية والتكتلات الحزبية والمصالح الانانية لاتزال تمضي في تمزيق جسم الامة وتقطيع اشلائها .

والبؤس والفقر هما سمة الشعوب الاسلامية مع ما تمتلك من ثروات طائلة و اراض خصبة معطاءة . والتخلف الشامل يلف كل جوانب حياة الامة و يسيطر على اجوائها . . . والميوعة والفساد والانحراف اصبح المصير الذى ينتظر كل ابناء الامة و اجيالها المقبلة .

ازاء هذا الواقع المؤلم الذى نعيشه لوتصفحنا مواقف الناس من ابناء الامة لوجدناها تتمثل فى المواقف التالية :

اولا: موقف اللامبالاة :

و هو الموقف الذى يضم غالبية افراد الامة حيث لايتعدى تفكير كل فرد حدود نفسه و مصالحه الذاتية ففى اثناء شبابه يجتهد فى اكمال دراستهوينتظر البعثة لمواصلة الدراسات العليا فى الخارج ثم يعود ليبحث عن وظيفة مغرية و شقة فارهة و سيارة من آخر موديل و زوجة جميلة . . . او يتجه الى التجارة والاعمال الحرة فيفتتح الدكان بعدالاخر ويشيد العمارة الى جنب الاخرى و يتكيفحسب الواقع المعاشى يتلذذ بالطعام الشهي والشراب المنعش والاجواء المريحة . . . ولايهمه بعد ذلك آلام امته و مآسى وطنه و اوضاع مجتمعه . . .

انك لاتجد فى حياة هذا القطاع الواسع من الامة فرقا كبيرا عن حياة الحيوانات التى لاتفكر فى اكثر من اكلها وشربها ولايهمها بعد ذلك فى اى جوتعيش . . اترى لوانك ربطت بقرة فى مزرعة او بستان هل تهتم هذه البقرة بمعرفة مساحة البستان او حدوده او صادراته او مصروفاته كلا . انها تهتم فقط بوجبات العلف التى تقدماليها ؟ تماما كمايهتمالانسان اللامبالى باكله و شربه و لذّاته فهل تلاحظ بينهما كبير فرق ؟؟

و قد حاول الامام علىعليهالسلام فى نهج البلاغة ان يشير الى حيوانية هذا الموقف ، و ان ينفرنا منه عن طريق رفضه الشخصى لموقف اللامبالاة ، يقول : ولو شئت لاهتديت الطريق الى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمح و نسائج هذا القز . و لكن هيهات ان يغلبنى هواى ، و يقودنى جشعى الى تخير الاطعمة و لعل

بالحجاز اواليمامة من لاطمع له فى القرص، ولاعهد له بالشبع او ابيت مبطاناوحولى بطون غرثى (جائعة) و اكباد حرىٰ (عطشانة) . . . فما خلقت ليشغلنى اكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها اوالمرسلة شغلها تقممها . . . "

و يقول ايضا عليه السلام :

" اتمتلىء السائمة (الحيوان الذى يرعى فى العشب) من رعيها فتبرك، ؟ و تشبع الربيضة (الحيوان المربوط الذى يعلف) من عشبها فتربض؟ و ياكل علىٰ فيهجع (يسكن و يرتاح) ؟ قرت اذاً عينه اذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة، والسائمة المرعية؟؟؟ .

ثانيا: الاهتمام السلبي :

و هناك قسم من الناس يدركون مدىٰ التخلف والانهيار العميق الذى تعيشه الامة و يتألمون للاوضاع المأساوية التى تعانى منها و لكنهم يلقون بالمسئولية على عاتق المجهول، فلا يرون لانفسهم نصيبا فى تحمل مسئولية ما يجرى و لايلزمون انفسهم بالقيام باى دور تغييرى .

فمسئولية الواحد منهم تنتهى عند حدود اصلاح نفسه، فعليه ان يحافظ على الصلاة و ان يؤدى الحقوق الشرعية، وان يجتنب المحرمات، و حينما تحين منه التفاتة الى الواقع المؤلم يكرر : " لاحول ولاقوة الا بالله " و " انا لله و انا اليه راجعون " و يحمد الله على نجاته شخصيا من الانحراف مرددا قول شاعرهم :

" و ماابالى اذانفسى تطاوعنى على النجاة بمن قدضل او هلكا

فهل صحيح ان الانسان مكلف باصلاح نفسه فقط و ما عليه بعد ذلك اذا فسد العالم كله؟ وهل صحيح ايضا ان الله سيحاسبنا يوم القيامة عن الصلاة والصوم والوظائف الشخصية فقط و سوف لايطالبنا باى عمل اجتماعى او دور اصلاحى؟

هذا ماسيتضح الجواب عليه خلال الفقرة التالية :

ثالثا: موقف المسئولية :

ويعني: ان يعتبر الانسان نفسه مسئولا عما يحدث او يرى نفسه مطالبا بالقيام بدور ما لاصلاح الواقع المعاشى، و يعتقد ان الله سبحانه و تعالى سيسأله و يحاسبه

يوم القيامة عن دوره في المجتمع و مسئوليته في الحياة و هذا هوالموقف الصحيح الذى تفرضه الحقائق التالية :

(١) لوسألنا الله تعالى عن الهدف الذى اوجدنا من اجله على سطح هذه الكرة الارضية لوجدنا الجواب من قبل الله صريحا في آيات القرآن الحكيم ، التى تعلن ان الهدف من وجودنا على ظهر الارض، عبادةالله و اصلاح الارض و عمارتها فالانسان خليفةالله في الارض و ممثله و نائبه على ظهر هذا الكوكب .

فعند خلق آدم ابى البشر قال تعالى للملائكة:" انى جاعل فىالارض خليفة و في آية اخرى " هوالذى جعلكم خلائف في الارض" . . . و يقول تعالى:" هوانشأكم من الارض واستعمركم فيها " .

واذا كنا خلفاءالله في الارض و نوابه والممثلين له ، السنا بعد ذلكمسئولين عما يجرى على الارض؟ فالتاجر الذى يخلف في متجره خليفة عنه اليس من حقه ان يحاسبه عما يجرى في المتجر؟

والرجلالذى يعين ممثلا له فيأحد اعماله و شؤونه الا ينتظر منذلكالممثل الاصلاح ودفع الاضرار؟ .

وبالضبط فانالله حينما يجعلنا خلفاءه فيالارض سيطالبنا باصلاحها و بمكافحة الفساد على وجهها " ثم جعلناكم خلائف فيالارض بعدهم لننظر كيف تعملون " . " فلولا كان من القرون من قبلكم أُولو بقية ينهون عن الفسادفي الارض " " الذين ان مكناهم فيالارض اقاموالصلاة و آتوا الزكاة وامروا بالمعروف و نهوا عن المنكر" .

و بعد ان عرفنا ان الهدف من وجودنا هو العبادة بمعناها الواسع و عمارة الارض و اصلاحها و اقامة الخير والحق على ربوعها هل يصح لنا ان ناخذ موقف المتفرج والمشاهد للمآسي التى تحدث امامنا ؟

يقولالامام علي فينهجهالخالد " فانكم مسئولون حتى عنالبقاع والبهائم ".

(٢) و هذا الدين الاسلامى العظيم الذى انزله الله لينقذ به حياة البشرية من شقاء الجهل والانحراف و يحلق بهم في اجواء السعادة والكمال . . . هذا الدين هل انزله الله ليبقى في حدود الممارسات الفردية ام انزله لينظم كلجوانبالحياة؟

لايشك مسلم فيانالله تعالى انما انزل الاسلام ليسود المعمورة و يوجه البشرية جمعاء يقول القرآن الكريم : " هوالذى ارسل رسوله بالهدى و دين الحق

ليظهره على الدين كله" . . . و يقول تعالى:" لقد ارسلنا رسلنا بالبينات و انزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط " و فى آية اخرى:" انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله" .

و لكن كيف يطبق الاسلام فى الحياة؟ .

هل يكون ذلك عن طريق تدخل مباشر من قبل الله كأن ينزل ملائكته او يرسل جنا يفرضون الاسلام و يجسدونه فى واقع الحياة؟ او هل يهلك الله بشكل غيبى كل من لا يلتزم بالاسلام؟

ان التدخل السماوى المباشر يفقد الحياة قيمتها ، فالحياة الدنيا انما خلقها الله لتكون قاعة ابتلاء وامتحان ياخذ البشر فيها حريتهم الكاملة . . . و انما يريد الله تطبيق الدين عن طريق البشر انفسهم حيث يقوم الملتزمون بالدين بدورهم فى العمل والنشاط والجهاد من اجل تطبيق الدين تماما كما ان النظم المعاصرة كالشيوعية والراسمالية لها جهات واجهزة و اناس يعملون على نشرها و تطبيقها فكذلك الاسلام يجب ان يعمل ابناؤه على نشره و تطبيقه . و حينما فرض الله على بنى اسرائيل محاربة اعدائهم تكاسلوا و طلبوا من الله ان يقوم هو مع نبيه بالمهمة ، فبماذا اجابهم الله؟ و ماذا كان مصيرهم ؟

يحدثنا القرآن عن القصة فيقول :

" يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين " قالوا ياموسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان خرجوا منها فانا داخلون . . . قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون و على الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين . قالوا : ياموسى انا لن ندخلها ابدا ماداموا فيها فاذهب انت و ربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون . . . قال : فانها محرمة عليهم اربعين سنة يتيهون فى الارض فلا تاس على القوم الفاسقين" .

فاذا كنا نعتقد ان الاسلام انما انزله الله ليطبق فى الحياة و ان الله تعالى لا يمكن ان يتدخل كليا و بشكل غيبي لتطبيقه فان مسئولية تطبيق الاسلام فى الحياة ستكون على عاتقنا نحن المؤمنين يقول تعالى:" و كذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا " . " كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر"

من هنا نعرف ان مسئوليتنا تتعدى حدودالالتزام الفردي بالاسلام الى مسئولية التغيير الاجتماعي والاصلاح العام وفق مبادئ الاسلام .

(٣) واذا بقي المتدينون ملتزمين بدينهم محافظين على صلاتهم وصومهم دون ان يكون لهم دور اجتماعي او عمل تغييري ، فماذا ستكون النتيجة ؟ .

ان النتيجة الحتمية لهذا التقاعس من جانب المتدينين هي توسع حبهة الباطل والفساد وبالتالي سيطرة الظالمين والاشرار على المجتمع : واستيلائهم على ازمة الامور ، لان هذا هو منطق الحياة الاجتماعية و طبيعتها يقول تعالى :

" ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض"

و بعد ان يسيطر الاشرار على المجتمع و يحكمون قبضتهم على شئونه عندها هل يسلم المصلون الصائمون من ظلم الاشرار و مضايقاتهم ام سيكونون اول ضحاياهم ؟

ان تجارب التاريخ واحداث الماضي تدل على ان الاشرار حينما يمتلكون زمام المجتمع سوف لايتساهلون مع اي بريء او هادئ و سوف لايتركون المصلين يؤدون صلاتهم و طقوسهم بحرية وراحة .

فما العلاج اذاً . . . ؟ اننا في حاجة الى الوقاية قبل ان نضطر الى العلاج و ذلك بان نبدأ بمكافحة الفساد والظلم والانحراف قبل ان يتفاقم و يستولي علينا ويمنعنا حتى عن الالتزام الفردى بالدين و هذا هو الحل الذى يفرضه علينا الدين .

يقول تعالى : " واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة " و يقول الامام عليه السلام : " لاتتركوا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فيُولىٰ عليكم شراركم ثم تدعون فلايستجاب لكم " .

و في موضع آخر : " لولم تتخاذلوا عن نصر الحق ، ولم تهنوا عن توهين الباطل لم يطمع فيكم من ليس مثلكم ولم يقومن قوي عليكم " .

(٤) ان الدين يحملنا ـ بصراحة ـ مسئولية سوء الاوضاع ويفرض علينا العمل من اجل تغييرها و اصلاحها .

فالامر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضتان شرعيتان لاتقلان عن الصلاة والصوم في مستوى الاهمية .

يقول تعالى : " ولتكن منكم امة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واؤلئك هم المفلحون " . و يقول الرسول محمد صلى الله عليه و آله : كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته " .

و يقول الامام في نهج العادل:" ما اخذ الله على اهل الجهل ان يتعلموا حتى اخذ على اهل العلم ان يعلموا " . " والذى فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر و قيام الحجة بوجود الناصر وما اخذ الله على العلماء ألا يُقارّوا على كظة ظالم (شدة امتلاء البطن) ولاسغب مظلوم (شدة الجوع) لالقيت حبلها على غاربها "

بل و يعتبر الدين السكوت والتفرج على ما يجرى ، اشتراكا عمليا في الجريمة يستحق به صاحبه العذاب والعقاب ، فعن الرسول الاعظم (ص) : " ان الله اوحى الى نبيه شعيب اني معذب من قومك مائة الف اربعين الفا من شرارهم و ستين الفا من خيارهم ! قال شعيب : يارب هؤلاء الاشرار فما ذنب الاخيار؟ قال: لانهم داهنوا اهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي " و في حديث آخر: " من رأى سلطانا جائراً . . فلم يغير عليه بقول ولابفعل كان حقا على الله ان يدخله مدخله " .

و في نهج البلاغة يقول الامام :" الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم " انما يجمع الناس الرضى والسخط و انما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا فقال سبحانه فعقروها فاصبحوا نادمين " .

ويقول ايضا :" فان الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين ايديكم الا لتركهم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فلعن السفهاء لركوب المعاصي والحلماء لتـــرك المناهي " .